مقام الوطن والحرب الوطنية
فى الإسـلام

فلا عجب، إذن بعد الذى تقدم، أن نرى «للوطن» و«الوطنية» مقامًا عـاليًـا فى فكر الإسـلام وتراث المسلمين. . ذلك أن الذين يقـولون «بالسلطة الدينية» و«وحدة السلطتين، الدينية والزمنية»[1] يغضون من شأن «النزعة الوطنية». . بل لقد رأينا منهم من يتحدث عنها كصنم وطاغوت يعبدها الوطنيون فى المجتمع الحديث ويشركونها فى العبادة مع الله[2]؟! أما الذين يقولون «بالطبيعة المدنية» لسلطة الدولة فى الإسلام، وبرفض الفكر الإسلامى للسلطة الدينية و«الحكم بالحق الإلهى» فإنهم لايعجبون ولا يتعجبون من إجلال الإسلام وتعظيم فكره السياسى لمقام الوطن والوطنية، وحث أمته وأهله على الاهتمام بهما إلى هذا الحد

(١) انظر فى دراسة هذه الأفكار ونقدها كتابينا: (الإسلام وفلسفة الحكم) طبعة بيروت ـ الثانية ـ سنة ١٩٧٩م. . و(الإسلام والسلطة الدينية) طبعة بيروت ـ الثانية ـ سنة ١٩٨٠م.

(٢) انظر فى دراسة هذه الأفكار ونقدها كتابينا: (الإسلام وفلسفة الحكم). و(الإسلام والسلطة الدينية).

الكبير . . فما دامت السلطة ذات «طبيعة مدنية»، فإن صراعاتها ـ ومنها القتال ـ لا بد أن تكون «مدنية الطبيعة» فهو قتال سياسى إذن، حتى وإن أطلق عليه، القتال فى سبيل الله . . بل إن جعله فى سبيل الله يصبح شهادة تمجيد وإعظام وتقديس للقتال فى سبيل الوطن والحرب دفاعًا عن حوزة الأوطان! . . وكيف لا . . والله يجعل قتالنا السياسى العادل وحربنا الوطنية المشروعة، ونضالنا المسلح لحماية الوطن وصون استقلاله جهادًا فى سبيله وقتالاً يبتغى به المقاتلون وجهه ورضوانه؟! . .

بل لقد جعل الإسلام، فى قرآنه الكريم، الموقف من «القضية الوطنية» معياراً يحدد للمسلمين من تجوز لهم مودته ومصادقته والبر به، ومن لا يجوز لهم إنزاله منازل الأصدقاء والأوداء، من غير المسلمين . . فنهانا نهيًا قاطعًا عن أن نصادق أو ننصر أولئك الذين يعتدون على ديارنا، أو يخرجون منها أبناءها المسلمين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

فالذين يخرجون المسلمين من أرضهم وينتزعونهم من ديارهم ويقتلعونهم من أوطانهم هم أعداء الله، كما هم أعداء لهؤلاء المسلمين

أصحاب «القضية الوطنية» . . بل إن تكافل الأمة الإسلامية ووحدتها العضوية حول المعتقد، ومن ثم حول المنطلقات والمقاصد والغايات، إن هذا التكافل يفرض على كل أبنائها أن يقفوا موقف العداء من أية قوة تخرج أى جماعة مسلمة من وطنها . . والإخراج من الوطن هنا لا يعنى التهجير الاضطراري فحسب، بل يشمل عزل المسلمين عن أن تكون لهم السيادة الفعلية والفعالة فى أوطانهم؛ لأنه إخراج لهم من ديارهم حتى ولو كانوا بأجسادهم فيها يعيشون؟! . . إن أية قوة تصنع ذلك بأية جماعة مسلمة، بل بأى مسلم ولو انفرد، هى عدوة لله؛ لأن الإسلام قد رفع العداء فى «القضية الوطنية» إلى مرتبة العداء لله، كما جعل القتال فى سبيلها قتالاً فى سبيل الله . . والله ـ سبحانه ـ قد نهانا أن نصادق أعداءنا فى «الوطنية» فليس لهم عندنا مودة أو موالاة أو نصر بأى حال من الأحوال.

وفى آية أخرى من آيات القرآن الكريم يحدثنا الله ـ سبحانه ـ عن من تجوز مصادقته من المخالفين لنا فى الدين؟ وعن من لا تجوز لنا مصادقته من هؤلاء المخالفين؟ . . فإذا نحن مطالبون بألاّ نصادق ثلاث فئات . .

(أ) الذين يقاتلوننا فى الدين، بالحيلولة ـ بواسطة القتال والصراع العنيف ـ بيننا وبين حرية الدعوة وأمن الدعاة . . أى يقاتلوننا عداء منهم لحرية الضمير والاعتقاد.

(ب) والذين يخرجون المسلمين أو بعضهم من ديارهم، على أى نحو كان هذا الإخراج، تهجيراً بالاضطهاد، أو عزلاً عن امتلاك

خيرات الوطن والتحكم فى مقدراته نتيجة للاحتلال والنهب والاستغلال!..

(جـ) والذين يظاهرون ـ أى يساعدون ـ مجرد مساعدة على إخراج المسلمين من ديارهم وأوطانهم، على أى نحو كانت المظاهرة والمساعدة فى القهر الوطنى من هؤلاء لأعداء المسلمين!..

نعم.. يوجز الله ـ سبحانه وتعالى ـ أوامره تلك، ويلخص لنا وصاياه هذه فى قوله:

﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

[الممتحنة: ٨ ـ ٩].

فللمسلمين ـ إذن ـ أن يقيموا علاقات البر والمودة مع مخالفيهم فى الدين إذا هم لم يفتنوهم بالقتال عن دينهم، ولم يخرجوهم من أرضهم إخراجًا جسديًا أو معنويًا. ولهم أن يقسطوا إلى هؤلاء المخالفين إذا هم لم يصنعوا شيئًا من ذلك.. بل لقد فسر بعض أئمة تفسير القرآن الكريم معنى «القسط» هنا بما هو أكثر من «العدل»؛ لأن العدل واجب على المسلمين دائمًا وأبدًا، مع الموافقين والمخالفين، الأصدقاء منهم

والأعداء . . واجب «فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل!» . . وقالوا: إن معنى ﴿وتقسطوا إليهم﴾: «أى تعطوهم قسطًا من أموالكم على وجه الصلة!»[1].

إلى هذا الحد تجب المودة ويلزم البر ويتعين القسط للذين لا يتخذون من أوطاننا وقضيتنا الوطنية موقف عداء . . وفى المقابل ينهانا الله ـ سبحانه ـ عن التولى ـ مجرد التولى ـ لمن يتخذون موقفًا عدائيًا من قضايانا الوطنية، مباشرة كان عداؤهم هذا أو بمجرد مظاهرتهم ومناصرتهم لهؤلاء الأعداء!.

بل لقد بلغ القرآن الكريم بقضية الوطن وعقيدة الوطنية الذروة عندما جعل الحفاظ على استقلال الوطن والدفاع عن حوزته، بشجاعة أهله واستبسالهم، الأمر الذى يحقق للمواطنين المعنى الحقيقى للحياة! . . وبالمقابل جعل الجبن والفرار والتفريط فى حرية الوطن واستقلاله موتًا لهؤلاء المواطنين الذين فرطوا فى وطنهم وأهملوا مشاعرهم الوطنية . . فهم بفقدانهم استقلال وطنهم أموات فى هذا الوطن، حتى وإن كانوا يعيشون ويأكلون ويشربون! . . لأن فقد الاستقلال يساوى ويعنى فقد المعنى الحقيقى للحياة! . .

يقرر القرآن الكريم ذلك . . ويضرب عليه المثل من قصص الأولين وتاريخ الغابرين:

---

(١) (الجامع لأحكام القرآن) جـ١٨ ص ٥٩.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٣ ـ ٢٤٤]

فهم لم ينهزموا من قلة فى العدد، فهم ألوف، وإنما انهزموا من خور وحذر من الموت وضعف أصاب شجاعتهم ووطنيتهم، فخرجوا من ديارهم، فارين مهاجرين، أو معزولين عن حكمها والتحكم فى أمرها والاستمتاع بخيراتها، رغم بقاء أجسادهم فيها.. فكان ذلك بمثابة أمر تكوينى من الله بموتهم!.. فلما ثابوا إلى رشدهم، وتعهدوا عاطفتهم الوطنية بالنماء، فاحتموا بها وتسلحوا بأسلحتها، واستردوا وطنهم واستعادوا استقلاله، كانت لهم الحياة! (ثم أحياهم)؟!.

بل لقد زكت الآية الكريمة ذلك الاستقلال الوطنى، الذى هو الحياة، بوصفها إياه بأنه من «فضل» الله على الناس، وتحدثت الآية التالية لها عن أن صون الاستقلال، والحفاظ على هذه الحياة رهن بالقتال: (وقاتلوا).. ثم جعلت هذا القتال، الذى يستهدف استقلال الوطن وعودة الروح والحياة الوطنية.. جعلته قتالاً فى سبيل الله!..

تلك هى الذروة التى بلغها الوطن والوطنية فى آيات القرآن الكريم، وتلك هى القدسية التى أضفاها الإسلام على القتال السياسى، لا الدينى، فى سبيل الوطن والوطنية واستقلال الأوطان.. لقد جعل الحياة فى وجودها، كما جعل فى فقدانها الموت والعدم والفناء!

وحتى يطمئن القلب، وتزداد القناعة، ويرسخ اليقين بهذه المعانى التى أشرنا إليها، نقرأ كلمات الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، تلك التى كتبها عندما وقف أمام هذه الآيات من كتاب الله: «تلك سنة الله ـ تعالى ـ فى الأمم التى تجبن فلا تدفع العادين عليها.. وحياة الأمم وموتها، فى عرف الناس جميعهم، معروف، فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكل من بقوا من أفرادها خاضعون للغالبين ضائعون فيهم، مدغمين فى غمارهم، لا وجود لهم فى أنفسهم وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم، ومعنى حياتهم هو: عودة الاستقلال إليهم.. إن الجبن عن مدافعة الأعداء، وتسليم الديار، بالهزيمة والفرار، هو الموت المحفوف بالخزى والعار، وإن الحياة العزيزة الطيبة هى الحياة الملِّية ـ (الوطنية) ـ المحفوظة من عدوان المعتدين.. والقتال فى سبيل الله.. أعم من القتال لأجل الدين؛ لأنه يشمل أيضًا الدفاع عن الحوزة إذا همّ الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا، أو أراد العدو الباغى إذلالنا، والعدوان على استقلالنا، ولو لم يكن ذلك لأجل فتنتنا عن ديننا.. فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق، كله جهاد فى سبيل الله.. ولقد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين!..»[1].

***

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ ٤ ص ٦٩٥ ـ ٦٩٧.

هكذا تناول الإسلام قضية الحرب والقتال والجهاد القتالى . .

* فهو عندما أنكر «الكهانة والكهنوت» أنكر وجود «السلطة الدينية» فى سياسة المجتمعات الإنسانية . . ومن ثم كانت الحرب فيه «سياسة» . . وليست «دينا» . . لأنها إحدى وسائل العمل السياسى فهى امتداد للسياسة، لكن بأدوات العنف فى الصراع! . .

* وهو عندما قرر أن (لا إكراه فى الدين) نفى ورفض أن يكون القتال سبيلاً لتحصيل «الإيمان»، الذى هو يقين باطنى وتصديق قلبى، لا يتحصل إلا بالإقناع ولا يتحقق إلا بالاقتناع . . ومن ثم نفى ورفض أن يكون هناك قتال دينى لنشر الدين وفرض الإيمان! . .

* وهو عندما جعل «للقضية الوطنية» ـ العيش فى الوطن الحر أحراراً ـ مكانًا عاليًا فى فكره، وفى قرآنه الكريم، حتى كادت أن تكون محور القتال المشروع فيه، إنما كان يرفع من قدر «الوطنية» ويعلى من مكان «الوطن»، ومن ثم يقدس القتال الذي شرعه ودعا إليه سياجًا يصون به المسلمون أوطانهم من الأعداء والطامعين.

وناهيك بفكر يجعل القتال فى سبيل الوطن جهاداً فى سبيل الله؟!.

***